

تفسير سورة الطور

هي مكة

آياتها ٤٩ - نزلت بعد السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ
 الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ
 تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * قَوْلِيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي
 خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ *
 أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * أَصَلَوْهَا فَأَصْبَرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا
 تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَكَاهِنٍ بِنَاءٍ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ
 وَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَأَشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكَلِّفِينَ
 عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ
 أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهينٌ *
 وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يُتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ *
 وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *
 قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَنَا عَذَابَ السُّمُومِ * إِنَّا كُنَّا
 مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ * فَذَكَرْنَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا
 مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا مَنْونٍ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُنْتَرَبِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقْوَلَهُ بَلْ
 لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ

الخالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ
 أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ سَلِمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعِيهِمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *
 أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبُتُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ
 الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ
 غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ
 مِنْ نُومٍ * فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ
 شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرَهُمْ
 لَا يَعْلَمُونَ * وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ
 اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول في تفسير البسملة .

القسم الثاني في ذكر العذاب والنعيم ، ووصف أهل الجنة وأهل النار ، مبتدئا ذلك كله بالقسم بما في
 العلويات والسفليات من أول السورة إلى قوله : « انه هو البر الرحيم » .
 القسم الثالث في إلزام الكافرين بالحجة ، ومجادلتهم بالتي هي أحسن في صدق النبوة ، واثبات الألوهية
 من قوله تعالى : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » إلى آخر السورة .

القسم الأول في تفسير البسملة

تنوعت الدرجات في هذه العوالم التي أبدعها الله عز وجل ، وهذا التنوع يدعو الى استيقاظ الأرواح ،
 ونشاط النفوس التي خلقت في هذه العوالم ، موت وحياة ، وذل وعز ، وجهل وعلم ، وشقاء وسعادة ، ثم نار
 وجنة ، وهذان هما اللذان كوران في هذه السورة ، كل مخلوق في هذه العوالم الأرضية يدور في أول أمره
 ناقصا ثم يأخذ في الاستكمال شيئا فشيئا حتى يصل إلى درجة الكمال كالزروع والحيوان والاسنان ، فالقاص
 قبل الكمال ، والدار قبل الجنة « وان منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ، ثم نتجى الذين اتقوا
 ونذر الظالمين فيها جتيا » .

الاسنان يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا والعلم يدور له قليلا قليلا ، وأكبر مدلة في هذه الحياة للأفراد
 والأمم الجهل ، وأعظم سعادة بالعلم ، وأولهما مقدمه على ثانيهما ، وفي هذه السورة نرى آيات العذاب جاءت
 في أول السورة ، وتلتها آيات العيم والحنان كما يلو العلم الجهل والسعادة الشقاء ، ومن أجل الدرجات وأبهج
 السعادات أن تصل النفوس إلى مستعها بعد حوامها ، وإلى سعادتها بعد شقاوتها ، وتذكر ما كانت تعانبه
 وتوازنه مما نالته من الهناء والسعادة ، ويشير لسلك أقبال مص أهل الجنة على بعض يتساءلون وتذكرون

أنهم كانوا يخافون العقاب وسوء المقلب ، فنجوا من العذاب وتمتعوا بأنواع اللذات ، متكئين على سرر مصفوفة وهم متزوجون بالخور العين .

ومن أبدع مايسرّ النفوس ويشرح الصدور الحجج القيمة والبراهين المنتظمة ، كأن يقال : أهذا العالم خلق نفسه ؟ أم وجد بلاخلاق ؟ وكلاهما باطل ، إذن له خالق وهو الله تعالى ، وهذا أيضا راجع للعلم بعد الجهل ، والعز بعد الذل ، فكأن الرحمة في هذه السورة متجهة لمنهج واحد معبد [بتشديد الباء] وذلك على سبيل النشوء والارتقاء ، فالإنسان قبل تمام الحجّة جاهل بالنتيجة والجهل عذاب ، ورسوخ العقيدة بتمام الحجّة نعيم كما أن الجنة بعد المرور على الجحيم ، ولقد جاء في [اخوان الصفاء] أن شقاء الناس تابع لجهلهم . وقال قبل ذلك سقراط فانه أبان أن الانسان لايفعل المعصية إلاظنه أنها نافعة له من وجه ، ولوأيقن أنها ضارة له لم يفعلها ، وأوضح ذلك الامام الغزالي رحمه الله تعالى فقال : لوأن طيبا قال للمريض هذا الكوب فيه سم قد تخلل الشراب الذي يملؤه وهو واثق طبعاً بكلام الطبيب لم يشربه المريض ولم يقربه ، وفرّ منه فراره من الأسد ، فلوأن الناس أيقنوا بمصرّة الذنوب وثوقاً حقيقياً لم يذنبوا ولكن العلم الناقص لايفيد ، إذن نقص العلم باب من أبواب جهنم ، والعلم التام باب من أبواب الجنة .

وليس ينال المرء كمالاً في هذه الحياة إلا بأمرين : الصبر عن الشهوات ، وعلى البلاء ، وفي الأعمال حتى تكمل ، ومن أجل الأعمال في هذه الحياة الدنيا الوقوف على سرّ هذا النظام ، وسرّه أن كل شرّ في هذا العالم لم يقصد به إلاأنه مقدمة لخير ، والخير والشرّ يتجهان معاً لنظام العالم نظاماً تاماً يستوجب الجد ، ولذلك ختم السورة بهذه الآيات : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » .

في أوّل السورة ذكر العذاب والنعيم ، وفي آخرها اطمئنان النفس بالصبر وبالعلم وهما المقصودان من هذه الحوادث الانسانية في هذا الوجود ، التسبيح والتحميد معا سرّ هذه الحياة ، فالتسبيح كما شرحناه مراراً ملازم للتحميد ، إذ ترى سلامة عيوننا من المرض ملازمة لتمتعنا بالنعمة الموجبة للحمد ، فتزويه الله عن العبث وعن الظلم بطريق البحث العلمي ملازم لحصول الحيرات لنا ، ولذلك كان التسبيح والتحميد ملازمين لأهل الجنة ، فهم هم الذين أدركوا سرّ هذا الوجود واطمأنوا بنور عقولهم إلى أن كل شرّ لم يقصد به إلا الخير بل أيقنوا أنه لاخير بلاشرّ ، ولايمكن حصوله بدونه ، فالشرّ لا بدّ منه لحصول الخير ، وهذه الطمأنينة نهاية سعادة هذا الانسان في الدنيا والآخرة ، فاذا لاحظ النجوم وسيرها وجاهلها فرح بجمالها وجمال مبدعها ، وكان في هذه الحياة الدنيا في سعادة وحبور ، ومن أيقن بهذا بطريق العلم فهم معنى : « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » انتهى الكلام على القسم الأوّل في تفسير البسمة . كتب يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٤ م

القسم الثاني : في ذكر العذاب والنعيم

ووصف أهل الجنة ووصف أهل النار

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(والطور) طور سينين ، وهو جبل بمدين كاهن الله موسى عنه السلام فيه . والطور بالسريانية الحبل

(وكتاب مسطور) مكتوب ، يقال سطره رتب حروفه المكتوبة ، والكتاب المسطور كل ما كتب من القرآن أو التوراة ، أو بقية الكتب السماوية ، وما سطر في القلوب الانسانية من المعارف ، وما في نفوس الملائكة من الحكمة ، وما في اللوح المحفوظ ، بل كل ما دل على حكمة يرمن له بالكتاب المسطور (في رقة منشور) الرق هو الصحيفة ، أو الجلد الذي يكتب فيه ، وأريد به هنا مجازا ما هو أعم ، والمنشور المفتوح لاختم عليه (والبيت المعمور) أي الكعبة المعمورة بالحجاج والمجاورين ، وقلب المؤمن الممتلئ بالمعارف والحكمة والاخلاص ، وهكذا كل مكان فيه عبادة كالذي ورد في الحديث الآتي ، وهو بيت في السموات العلى قدام العرش (والسقف الرفوع) أي السماء (والبحر المسجور) أي الموقد المحمي بمنزلة التنور المسجور كما قاله ابن عباس ، وهذا البحر هو الذي كشف في العصر الحاضر على سبيل الظن ، وقد أشارت له الأحاديث ، ولكن الأم قديما لم تعرفه ، فعن عبد الله بن عمر : لا يركب رجل البحر إلا غازيا أو معتمرا أو حاجا فان تحت البحر نارا وتحت النار بحرا ، ولا جرم أن هذا البحر هو باطن الأرض الذي اتضح اليوم ، وعلم من الكشف أن الأرض كلها كبطيخة وقشرتها كقشرة البطيخة : أي ان نسبة قشرة البطيخة إلى باطنها الذي يؤكل كنسبة قشرة الأرض إلى النار التي في باطنها ، فنحن الآن نسكن فوق نار عظيمة : أي فوق بحر مملوء نارا ، وهذا البحر معطى من جميع جهاته بالقشرة الأرضية المحكمة سدا عليه ، ومن وقت إلى وقت يتصاعد من ذلك البحر نار تظهر في الراكين أو بالزلازل كالزلازل اليابانية التي حدثت في سنة ١٩٢٥ وكبركان ايزدن بإيطاليا ، وهذا البحر المسجور الآن يعتبر من أكبر المعجزات للقرآن ، فانه لم يعلم به أحد من الأمم الاسلامية ، ولا غير الاسلامية بعد النبوة ، ومن عجب أن يذكر في الحديث أن تحت البحر نارا ، وهذا عجيب ! وأما كون النار تحتها ماء فعناء أن البحر فوق الأرض والنار في باطنها ، وفي الجهة المقابلة يكون البحر ، فالبحر في الجهتين المتقابلتين والنار محصورة بينهما . أقسم الله بهذه كلها وحواف القمم (إن عذاب ربك لواقع) لئلا يمانع من دفعه (يوم تمور السماء مورا) تضطرب ، والمور تردّد في الجي والذهاب (وتسير الجبال سيرا) أي تسير عن وجه الأرض فتصير هباء (فويل يومئذ للمكذبين) يقول : اذا وقع ذلك فويل لهم (الذين هم في خوض يلعبون) أي يندفعون في الباطل والكذب كما قال تعالى أيضا في سورة أخرى : « وكما نخوض مع الخائضين » (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) يدفعون إليها بعنف بحيث تعل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويقال لهم (هذه النار التي كنتم لها تكذبون) ولقد كنتم تنسون لمحمد أنه يسحر العقول ويفطى على الأبصار ، فهل هذا الذي هو مصداقه سحرا أيضا ، وهذا قوله (أفسح هذا أم أتم لاتبصرون) هذا أيضا كما كنتم لاتبصرون في الدنيا ما يدل عليه ، وهذا تفرغ وتهمك (اصلوها فاصبروا أولا تبصروا) أي ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه (سواء عليكم) الأمران الصبر وعدمه ، ثم علل الاستواء المذكور بأن الحراء لا بد منه فلا يتوقف على الصبر فقال (إنما تحزرون ما كنتم تعملون) .

وإن فرغ من ذكر أهل النار شرع في الكلام على أهل الجنة فقال (إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين) مجيبين بذلك بأعمين (عما آتاهم ربهم) من الخير والكرامة (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) يقال لهم (كأواواشروا هنيئا) مأمون العاقبة من التلذذ والسقم (عما كنتم تعملون) في الدنيا من إيمان وطاعة (متكئين على سرر مصفوفة) موضوعة بعضها إلى بعض مصطفة (ورؤسهم محورها عين والذين آمنوا واتبعوهم فزرتهم بايمان) هذا مبتدأ خبر (لحنا بهم) أي نلحق بهم (فزرتهم) في إيمانهم ونواكب أولئك الأسماء مقلدين لآبائهم ، فالآباء إيمانهم نظري والآباء إيمانهم تقديدي لا يتابعهم لآباء ، ونحن لحق لآباء بالآباء في الايمان ، ونحمل غير الناطقين كالشركيين والمفكرين ، ويبرء من ذلك أن يدخلوا الجنة معهم (وما آتاهم) وما نقصاهم (من عملهم من

شيء) بهذا الاخلاق (كل امرئ بما كسب رهين) بعمله مرهون عند الله تعالى ، والعمل الصالح يفكه والا هلك (وأمددناهم بغاكة ولحم مما يشتهون) أى وزدناهم وقتا بعد وقت ما يشتهون من أنواع النعم الحسية والمعنوية (يننازعون فيها كأسا) يتعاطون في الجنة هم وجلساؤهم ويتجاذبون خرا في كأس (لأنغو فيها ولانأيم) لا يتكلمون بلعوا الحديث في أثناء شربها ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، بخلاف خمر الدنيا ، فالشارب لها كثير اللغو فعال للأثم (ويطوف عليهم) بالكأس (غلمان لهم) بمالك مخصوصون بهم (كأنهم) في الحسن والبياض والصفاء (لؤلؤ مكنون) مخزون مصون لم تمسه الأيدي ، وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقيل له هذا الخادم فكيف المخدوم؟ قال فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا في الجنة أى يتذكرون ما كانوا فيه من الخوف والتعب في الدنيا (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا) في الدنيا (مشفقين) خائزين من العذاب (فبق الله علينا) بالمعفرة (ووقنا عذاب السموم) عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم (إما كنا من قبل ندعوه) أى كنا من قبل ذلك في الدنيا نعبده ونسأله الرحمة ووفاية العذاب فنقول «وقنا عذاب النار» ثم ان في تجاذب الكأس بينهم وأقبلهم بعضهم على بعض ، وعدم اللغو في مجالسهم اشارات إلى لذات فوق لذات أهل الأرض كما قال ابن العارض :

صفاء ولاماء وطف ولاهوا * ونور ولا نار وسكر ولاخر

وقوله (إنه هو البر) أى المحسن (الرحيم) انتهى التفسير اللفظي للقسم الثاني من السورة .

القسم الثالث في الزام الكافرين بالحجة

ومجادتهم بالتى هي أحسن في صدق النبوة واثبات الألوهية

قال تعالى (فذكر) فمظا يحمد بالقرآن كما قرئش ومن معهم (فما أنت بنعمة ربك) برحمته وعصمته وانعامه عليك بالنبوة ، أو بحمده وانعامه (بكاهن ولا مجنون) الكاهن من يوهم الناس أنه يعلم العيب ويخبر به (أم يقولون شاعر تر بص به ريب المنون) أى بل أقولون هوشاعر ، وريب المنون ما يعلق النفوس من حوادث الدهر ، أو نفس الموت ، يقال منه اذا قطعه (قل تر بصوا فاني معكم من المتر بصين) أتر بص هلاككم كما تر بصون هلاكى (أم تأمرهم أحلامهم بهذا) أى بل أنأمرهم عقولهم بهذا التناقض في القول ، فالشاعر غير الكاهن غير المجنون ، ورفق عظيم بين مجنون العقل ومن يزن الشعر بحكمة ودقة ومن هو كاهن (أم هم قوم طاغون) مجاوزون الحد في العناد (أم يقولون تقوله) اختلقه من تلقاء نفسه (بل لا يؤمنون) فيرونه بهذه المطاعن كفرا وعنادا ، وفي قوله « بل » رد لما زعموا أى ليس الأمر كما زعموا (فليأتوا بحديث مثله) أى بحديث مخلق مثل القرآن (ان كانوا صادقين) في زعمهم ، وفيهم العصحاء ، ثم شرع بين فساد نظر باتهم في الإلهيات بعد السنوات فقال (أم خلقوا من غير شيء) أى بل أخلقوا من غير حائق ، ومعلوم أن الحادث لا ند له من محدث . أم هم أحدثوا أنفسهم ويلزم عليه أن الشيء مقدم على نفسه وهو مستحيل ، فهم باعتبار أنهم حالقون مقدمون على أنفسهم في الوجود ، اعتبار أنهم مخلوقون ، وهذا هو قوله (أم هم الخالقون) أى بل هم (أم خلقوا السموات والأرض) أى واد فرضهم حلقوا أنفسهم فهل هم خلقوا السموات والأرض المتين عليهما تتوقف حياتهم ؟ فان من يخلق شيئا يخلق أسبابه ، واذن لا بد أن يخلقوا السموات والأرض ، وهذا معلوم كذب صعا (بل لا يؤمنون) اذا سئلوا من خلقكم ومن خلق السموات والأرض؟ قالوا الله ، ولو أنهم أقروا ذلك ما أعرضوا عن العدة (م عدهم حرس ، لك) خزائن

رزقه حتى يعطوا النبوة لمن يشاءون ، ويصطفوا لها من يختارون (أم هم المصيطرون) الغالبون على الأشياء يدبرونها كيف يشاءون (أم لهم سلم) صرتي إلى السماء (يستمعون فيه) كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يأمروا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه (فليات مستمعهم بسطان مبین) بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم (أم له البنات ولكم البنون) سفه سبحانه أحلامهم إذ اختاروا لله البنات وهم البين ومن كان هذا رأيهم لا يعتد بهم (أم تسألهم أجرا) على تبليغ الرسالة (فهم من مغرم) من التزام الغرم (مثقلون) محزون الثقل فلذلك زهدوا في اتباعك (أم عندهم الغيب) اللوح المحفوظ المثبت فيه العبيات (فهم يكتبون) ما فيه حتى يقولون لا نبعث ، وإذا بعثنا لم نعذب (أم يريدون كيدا) وهو كيدهم في دار الندوة برسول الله ﷺ (فالذين كفروا) أظهر في موضع الاضمار لتسجيل الكفر عليهم (هم المكيدون) هم الذين يحق بهم الكيد ويعود عليهم وبال كيدهم وقد تم يوم بدر (أم لهم إله غير الله) يعنيهم ويحرسهم فيكفرون بالله ويلتجئون إلى ذلك الإله (سبحان الله عما يشركون) عن اشراكهم (وان يروا كسفا) قطعة (من السماء ساقطا يقولوا) من فرط طغيانهم وعنادهم هذا (سحاب مركوم) تراكم بعضه على بعض ، وهذا جواب لقولهم : « فأسقط علينا كسفا من السماء » . يقول الله : لوعذبناهم بسقوط قطعة من السماء لقالوا أول ظهورها ليس بعذاب مكابرة كجأى عادتهم (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) عند الفجعة الأولى (يوم لا يعنى عنهم كيدهم شيئا) أى شيئا من الاغناء في ردّ العذاب (ولا هم ينصرون) يععون من عذاب الله (وان للذين ظلموا) من كل أمة وجييل (عدابا دون ذلك) أى دون عذاب الآخرة في الحياة الدنيا كقحط قریش وقتلهم يوم بدر ، وهكذا المصائب التي تحيط بالمسلمين اليوم باغارات الفرنجة عليهم وغير ذلك ، وكعذاب القبر (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (واصبر لحكم ربك) إذ أمهلهم وأوقعك في نصب معهم فذلك لأجل معانوم (فانك بأعيننا) في حفظنا ورعايتنا فنحن نراك ونكافؤك ، وجمع العين للمبالغة في الحفظ (وسبح بحمد ربك حين تقوم) من أى مكان وقت ، ومن مامك ، والى الصلاة (ومن الليل فسبحه) فان العبادة فيه أشق على النفس وأبعد من الرياء (وادبار النجوم) وادا أدبرت النجوم من آخر الليل : أى في أعقابها إذا غربت أو خفيت ، والمراد أن يقول « سبحان الله وبحمده » في هذه الأوقات ، وقيل التسبيح الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل صلاة العشاءين ، وادبار النجوم صلاة الفجر . انتهى التفسير اللفظي للقسم الثالث من السورة

وبدنى للإنسان أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك إذا قام من المجلس ، وزاد الترمذى : أشهد أن لا إله إلا أنت أستعرك وأتوب إليك ، ومنها تكفر ما بينهما . وعبره يقول : ذكر الله بالليل من حين تقوم من الفراش إلى أن تدخل الصلاة . وفات عائشة رضى الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم إذا قام بالليل يفتتح بالتكبير عشرا والتسبيح عشرا والتهليل عشرا والاستعمار عشرا ويقول اللهم اعمرنى وارحمنى واهدنى واررقى وعافى ، وكان يتعوذ من صيق المقام يوم القيامة ، وأيضا كان صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بقوله : سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وهالى جدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك .

لطائف هذه السورة

(١) في قوله تعالى : « وانظور » الخ .

٣١ وحى قوله : « وانظور » ، والسبت المرهوع ، واسم المسجور .

اللطيفة الأولى في قوله تعالى : والطور

أقسم الله في هذه السورة بأعلى مكان وأشرفه وأكثره رجة وهو السماء ، وبأدنى مكان قد ملئ بهما وعذابا وهو البحر المسجور في باطن الأرض ، وبما بين ذلك من الكتب المسطورة ، والعلوم المنشورة ، والحكم المشورة ، والآراء المبثوثة ، المقروءة في كتب الديانات ، وبدائع الآيات ، وحكم السموات ، ومعارف النفوس وأشراق القلوب ، وبأماكن العبادات من البيت الحرام ، وغيره من أماكن في عوالم لا يعلمها أحد إلا الله .
أقسم الله بالسموات العلى ، وبما تحت الترى ، وبيوت العبادات في الأرض والسموات ، وبالعلوم المعقولات في الأرض وفي السماء .

أقسم الله بذلك كما أقسم بالذاريات دروا ، هناك أقسم الله بالرياح وتصريفها ، وبالسماء وحسنها وجبالها وهنا أوسع القسم إيساعا لم يذكر عالما سماويا ولا أرضيا ، ولا موضع عبادة ، ولا مكان علم إلا أدخله في القسم وأشار إليه . انتهت اللطيفة الأولى

اللطيفة الثانية في قوله تعالى : والبيت المعمور الخ

وإنعجب ما أقسم به البحر المسجور الذى في باطن الأرض على ما يظن الناس ، والبيت المعمور ، والرق المشور ، وقد روى أن الله تعالى يجعل البحار كلها يوم القيامة مارا فيزادها في نار جهنم ، فاذا أصفنا هذا الحديث إلى الحديث المتقدم وهو أن نحت البحار نارا يكون البحر الذى هو باطن الأرض مصبا إليه لبحر الملح فيتسع نطاق النار ، فاذن باطن الأرض نار الآن ، والبحار يوم القيامة تصير نارا ، وهذا واضح لأن البحر المسجور الذى هو عبارة عن باطن الأرض اذا جاء أجل الأرض ووقع ماء البحر في باطن الأرض لم تسكن البحار التى على وجه الأرض شيئا مذكورا بالنسبة للنار فتحوّل مارا في ملح البصر ، فاما نشاهد أننا اذا أنزلنا الماء على النار ليطفئها وكان الماء قليلا تحوّل الماء الى نار ، وزاد في اشتعالها ، لأن الاكسوجين الذى في الماء نار فينقلب الماء إليها ، وهذا من أعجب العلم والمعجزات في القرآن .

وأما البيت المعمور الذى يقال له [الضراح] فيقال ان حرمة في السماء كحرمة الكعبة في الأرض . وقد جاء في حديث المعراج من أفراد مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ رأى البيت المعمور في السماء الساعة فال فادا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه . وفي رواية أخرى : فانهيت إلى بناء فقلت لملك ما هذا ؟ قال بناء ساء الله لللائكة يدخل فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون يسبحون الله ويقدمونه ، ولعل ذلك البيت في عوالم مما لا يحيط بالمال ذكرها غابت عنا لتعديها ، ومن تأمل علم الفلك أيقن بما تقدم لاسيما ما روت روح الميلسوف غاليلي لما أحضرت وطلب منها التكم على العالم ذكرت أن هناك كواكب شمسا بالنسبة لها حكمته بالنسبة لحلل ، وحياتهم ونظامهم أرقى من حياة أهل الأرض ونظامهم ، بل لا يحظر بالبال السعادة هناك والهاء والعظمة وأنواع المعيشة ، وهناك الشمس التوامم جمع توأم فان نظام أهلها لا يحظر بالبال ، ولم تسمعها أذن ، ولم تره عين . بل هو فوق متناول الحواطم من البهجة والجمال ، ويقول : ان تلك العوالم كلها مسكونة وهي تعد بمئات الملايين ، فاجاء في هذا الحديث وهذه الآية أصح مما يقرأ في العلم العلكي والعلم الروحي بأوروبا

وأما الرق المشور الذى ذكر بعد الطور الله ول كتاب التوراة وكل كتاب سماوى وحكمى الخ فانه قد ظهر أتمّ ظهوره في هذا الزمان ، إذ يك الموع الا ساء يعرف رد منشور كما يعرف بحر الآن . فستدّ طهر الله في سائر الأرض الحرائد والمخلات منشورة فيبها . عة في امرت وحررت رائشريع ، وقد نشرها

في أيديهم وقرأها الناس في كل مكان ، ولم يكن ذلك معروفا قبل هذا العصر عصر الورق ، والقرآن يسميه الرق المنشور .

فانظر كيف أقسم الله بالبحر ، وبالبيت المعمور ، وبالرق المنشور ، ولم يظهر بحر النار ، ولا أن هناك عوالم في الكواكب لا تنتهي ، ولأن هنا في الأرض جرائد تنشر وتباع للعامة والخاصة ، ولأن هناك تعليما عاما يشترك فيه الخاصة والعامة من كل الأمم إلا في هذا الزمان .

نشر الصحف على قسمين : أحدهما انتشار التعليم والتربية وهو التعليم العام الذي أخذ ينتشر انتشارا سريعا في الوقت الحاضر . وثانيهما ظهور الجرائد والمجلات منشورة في كل مكان ، ومن هذا الباب عموم التلفون والتلغراف (البرق) الذي له سلك والذي لاسلك له ، وهكذا المسرّه (التلفون) . كل هذه في معنى الرق المنشور ، فهذان القسمان من الصحف المنشورة لم يكن لهما وجود قبل هذا الزمان أخبر عنها القرآن .
لم يكن في الأرض أمة قط تعلم تعليما عاما أيام النبوة ، لم يكن في دولة الرومان تعليم إلا لأبناء الأشراف ، وهكذا دولة الفرس الذين يجعلون التعليم لطبقة معلومة ، جاء القرآن وقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق » .

كانت البراهمة تجعل الناس أربع درجات : فهم من هم كالرأس وهم رجال الدين ، ومنهم من هم كالصدر وهم رجال الجيش ، ومنهم من هم كالبطن ، ومنهم من هم كالرجلين ، ومعنى هذا أن الرق لم يكن منشورا عاما بل كان خاصا ، جاء الاسلام وعمم العلم وقال : « في رِقْ منشور » ولا نشر على الوجه الأكل إلا في هذا الزمان ، فهو يرمى لعرضين : الأوّل تعميم التعليم ، والثاني الاخبار عما حصل في هذا الزمان من قوالم : [انتشار التعليم] وقوالم [تعميم التعليم] وقوالم [نشر الصحف] وقوالم [نشر المدنية والحضارة] وقوالم [نشر الكتب] وما أشبه ذلك .

نتائج هذه المعجزة القرآنية في النفوس

إن نتائج هذا المقال في العقول قسمان : القسم الأوّل ما يحصل في عقول بعض المؤمنين من أمتنا فيفرحون بهذا القول ويقولون الله أكبر : إن نبينا حقّ والاسلام حقّ ويفرحون ، وهؤلاء هم الكسالى العافلون الذين يقتصرون على الايمان وهم بأعمى [القسم الثاني] هم أهل الحكمة والبصيرة الذين سيقربون هذا الكتاب وأمثاله ويدركون بنور الصيرة مستقبل الاسلام فيقولون : لم يذ كر الله ذلك ليريد مجرد الايمان كلا . وإنما يريد أن يحثنا نحن أبناء هذا الجيل على العلم والحكمة ، وأن نأخذ حظنا في الأمم ومركزنا في الحياة ، وهذا العريق يقول : ان هذه الآيات حجة عليما ، فاذا كان الله نشر العلم في العالم الاساني ، وأبرز مكنون الحكمة كالبحر المنسجور والبيت المعمور ، واذا كان جلّ جلاله يقسم بما هو فوق السموات العلى ، وبما هو تحت الأرض السفلى ، وبما بينهما من العلم المنشور ، وقد أقسم قبل ذلك بجاث الرياح والسحاب والمطر التي بها كان نظام حياتنا ، وذلك بعد أن لعت عقولنا للسماء والأرض في [سورة ق] . اذا فعل الله ذلك وكرره فليس له نتيجة إلا أن المسامين اذا قصروا في معرفة علوم العالم العلوي والسفلي لاسيا بعد ظهور الصحف المنشورة في عصر انعم والعرفان منهم لا يستحقون الوجود ، وأن هذا الدين ينقل منهم إلى قوم آخرين ويسكن الله أرضهم قوما حيرا مهم لأهم لا يصلحون للحياة ، فالناظر لهذه الأقسام من أرباب العسكريين في ارتقاء أمتهم حائمين من ربهم اذا قصروا في العناية بما أقسم به .

أقول قولي هذا وأستعبر الله لي ووالديّ والمسالمين والمسلمات . وأسأل الله أن يفتح هذا الكتاب بنا بلحه المسهون لمعلوم والعرفان . وأن يكثر في هذه الأئمة من رجال العلم انعاميين ، والى هاتم الكلام على سورة طه ، ولحبه رب العالمين . كتبت في ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٥ هجرية .